عادل مرسي

# شرح كتاب القواعد الأربع

لشيخ الإسلام المجدِّد العلامة محمّد بن عبد الوهاب
رحمه الله رحمة واسعة

بشرح فضيلة الشيخ
صالح آل الشيخ حفظه الله تعالى

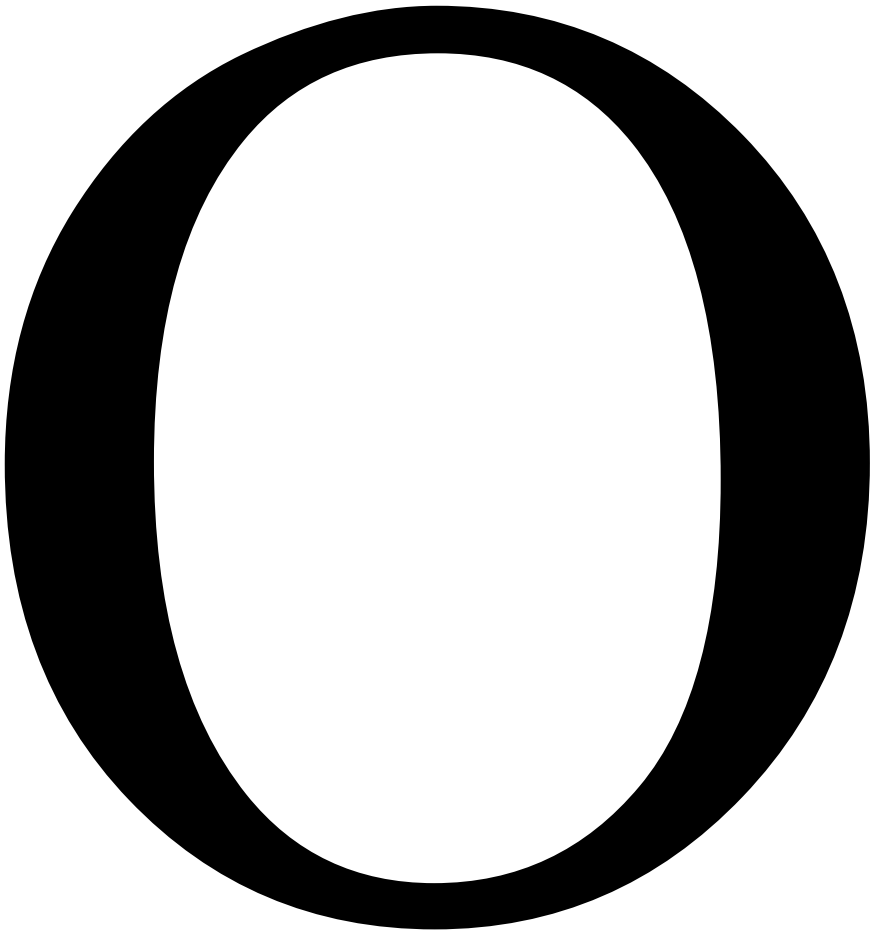

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح كتاب القواعد الأربع لشيخ الإسلام المجدِّد محمّد بن عبد الوهاب – رحمه الله – بشرح فضيلة الشيخ صالح آل الشيخ – حفظه الله – :

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله ε تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين ... أما بعد :

فإن هذه النبذة المختصرة " القواعد الأربع " من النبذ الهامة من مقال إمام هذه الدعوة – رحمه الله تعالى – وأهميتها تأتي بمعرفة مضادّات تلك القواعد الأربعة ، وأن الإخلال بهذه القواعد الأربع أو عدم ضبط تلك القواعد يقع معه لبس عظيم في معرفة حال المشركين وحال الموحدين .

والابتلاء وقع بحال أهل التوحيد وبحال أهل الإشراك والله – جل وعلا – بيَّن في القرآن ما يجب من حقه وبيَّن المشرك به بيانًا عظيمًا وهذه القواعد الأربع مأخوذة من نصوص الكتاب والسنة ومن معرفة حال العرب – كما سيأتي – . فهي قواعد عظيمة وتعصم من حفظها وعلم معناها من أن يكون عنده تردد في مسألة الحكم على أهل الإشراك وعلى وجوب إخلاص الدين لله – عزّ وجل – وكيف يكون ذلك .

إمام الدعوة – رحمه الله – كعادته في كثير من رسائله يبدؤها بدعاء لمن يقرأ هذه الرسالة أو لمن وجهها إليه وهذا – كما هو معلوم – فيه التنبيه على أن مبنى العلم ومبنى الدعوة : الرحمة .

الرحمة والتراحم بين المعلم والمتعلم والرحمة والتراحم بين الداعي والمدعو لأن الرحمة في ذلك هي سبب التواصل قال – جل وعلا – : [ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ... ] يعني : فبرحمة من الله لنت لهم و[ ما ] في هذه الآية صلة لتأكيد الجملة وهي التي تسمى : الزائدة بزيادة التأكيد [ فبما رحمة من الله لنت لهم ] فالدعاء هذا ناتج عن الرحمة ، وهكذا ينبغي على المعلم وعلى الداعية وعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون رحيمًا بالخلق ، رحيمًا بهم كما وصف – جل وعلا – نبيه ε بقوله : [ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ] وقال : [ ... بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ] وغير ذلك ، وقال ابن القيّم في وصف حال الداعي إلى الله مع أهل المعصية أهل النفور من الحق قال في ذلك :

واجعل لوجهك مقلتين كلاهما  من خشية الرحمن باكيتان
لو شاء ربك كنت أيضًا مثلهم  فالقلب بين أصابع الرحمن

حتى حين توقع الحدود وتُطبّق ، تُطبّق على وجه الرحمة لا على وجه الانتقام رحمة بهذا الذي استحق العقوبة أن تسلّط عليه إبليس ، والشيطان جعله مستحقًا لذلك كأسيرٍ من أحبابك إذا وقع أسيرًا في أيدي العدو .

فهذا التقديم بالدعاء من الإمام – رحمه الله – فيه التنبيه على ذلك ، ودعا كان فيما دعا أنه سأل الله – جل وعلا – أن يجعلنا ممن إذا أعطي شكر وإذا أبتلي صبر وإذا أذنب استغفر وهؤلاء الثلاثة عنوان السعادة .

إذا أعطي شكر لأن العطاء من الله – جل وعلا – نعمة ، والله – جل وعلا – يحب الشاكرين من عباده ، والشكر يكون بلسان المقال ويكون بالعمل : [ ... أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ... ] بالمقال وبالعمل وقوله : [ ... اعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًاۚ ... ] هذا من جهة العمل وقوله تعالى : [ ... وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ] هذا من جهة القول والعمل ولهذا اختلف وافترق الشكر عن الحمد ، فالشكر يكون عن نعمة ، وأما الحمد يكون لنعمة أو في مقابل نعمة ، وقد لا يكون ، يكون ثناءً مبتدءًا ، والشكر يكون باللسان دون العمل في فروق معروفة عند أهل العلم ، وهذا مما ينبغي تدبره ، وهو أن العبد إذا أعطي عطاءً شكر عطاء الله – جل وعلا – ، وشُكر العطاء –كما ذكرنا – بالقول والعمل ، أما بالقول فأن ينسب العطاء إلى من أعطاه وأن يثني عليه به وألا يلتفت فيه إلى غيره : [ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ... ] [ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ... ] ، ومن جهة أخرى جهة العمل ، يكون الشكر في استعمال النعم فيما يحب من أنعم بها وأسداها ، وهذا مما يحبه الله – جل وعلا – بل من عظيم ما يحبه الله من العبادات أن يكون العبد شاكرًا ولهذا قال : [ ... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ] وقال – سبحانه – : [ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ] يعني : يا ذرية من حملنا مع نوح [ إنه كان عبدًا شكورًا ] يعني : كان كثير الشكر لله – جل وعلا – . قال أهل التفسير : كان إذا أكل الأكلة شكر الله عليها ، وإذا شرب الشربة شكر الله عليها ، وإذا اكتسى شكر الله على ذلك يعني : أن يتبرأ من كل حول وقوة فيما جاءه من النعم أو فيما يَسُرُّه وأن يعترف بأنها من الله – جل وعلا –

وباب الشكر له صلة بالتوحيد وكأن الإمام – رحمه الله – حين ذكر الشكر على العطاء والصبر على البلاء والاستغفار من الذنب ، كأنه نظر إلى حال الموحد وخاطبه بما يجب أن يكون معه دائمًا ، فإن الموحد أنعم الله عليه بنعمة لا تعدلها نعمة ألا وهي أن كان على الإسلام الصحيح على التوحيد الخالص الذي وعد الله أهله بالسعادة في الدنيا والآخرة ، ولابد للموحد من ابتلاء فسأل الله له أن إذا أبتلي صبر ، والابتلاء قد يكون من جهة الأقوال التي قد توجه إليه وقد يكون من جهة البدن وقد يكون من جهة المال أو غير ذلك .

قال : وإذا أذنب استغفر لأن الموحد لابد وأن يكون معه شيء من الإعراض ولابد أن يقع الذنب إما من الصغائر وإما من الكبائر ، والله – جل وعلا – من أسمائه الغفور ولابد أن يظهر أثر ذلك الاسم في بريته وملكوته ، ولهذا يحب الله من عبده الموحد المخلص أن يكون دائم الاستغفار ولابد للموحد من ذلك ، والعبد إذا ترك عِظم الاستغفار جاءه الكبر .

والكبر يحبط كثيرًا من العمل ، لهذا قال هنا : وإذا أذنب استغفر وهؤلاء الثلاث عنوان السعادة ، فإذًا هذه متلازمة في حال كل موحد وهي الشكر على العطاء والصبر على البلاء والاستغفار من الذنب والعصيان . وكلما عظم العبد معرفة بربه كلما عظم هذه الثلاث وكلما عظم التوحيد في القلب عظمت هذه الثلاث حتى يصير العبد لا يرى سوى الله – جل وعلا – في استحقاق شيء

من أعماله وتصرفاته فإن غفل في ذلك كان استغفاره ليس استغفار الذي لا يفقه ، ولهذا كان – عليه الصلاة والسلام – يستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من مائة مرة ، وفي رواية في الصحيح " أنه كان يستغفر الله في المجلس الواحد سبعين مرة " .

والموحد عليه خطر ، خطر الغرور ، الغرور بأنه من أهل التوحيد أو من المحققين لاتباع السلف أو ممن علم هذا العلم ثم لا يكون في قلبه من الخضوع والذل الذي يعلمه الله منه ما يكون ذلك سببًا لقبول هذه الوسيلة وهي وسيلة التوحيد لله – جل جلاله – ، وشأن الله أعظم وطلب من عباده شيئًا قليلاً ولهذا عظم أمر التوحيد وقبّح جدًا الشرك وما جرّ إليه .

هذه المقدمة مدخل لهذه القواعد وأول ذلك أن الحنيفية هي ملة إبراهيم – عليه السلام – وجعل الله – جل وعلا – إبراهيم حنيفًا يعني : مائلاً عن طريق الشرك إلى التوحيد الخالص ، والحنيفية هي : الملة التي مالت عن كل باطل إلى الحق وابتعدت عن كل باطل إلى الحق وهي ملّة أبينا إبراهيم – عليه السلام – كما قال – جل وعلا – : [ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَـاكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ... ] وقال – جل وعلا – : [ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ] .

حقيقة ملّة إبراهيم هي : تحقيق معنى لا إله إلا الله كما قال – جل وعلا – في سورة الزخرف : [ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ] وهذه الكلمة هي كلمة لا إله إلا الله . قال : [ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي ... ] هذه هي كلمة التوحيد : [ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ] هذه هو نصف النفي أو هذا هو النصف الذي هو النفي في كلمة التوحيد ، يعني قول : ( لا إله إلا الله ) معناه : [ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ] ، ( إلا الله ) يعني : [ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي ] ، ولهذا قال أهل العلم : إن كلمة التوحيد ( لا إله إلا الله ) فيها نفي وفيها إثبات والنفي فيه البراءة من كل معبود سوى الله – جل وعلا – ومن عبادة كل ما سوى الله – جل وعلا – لأن عبادة ما

سوى الله – جل وعلا – باطلة وإثبات العبادة لله – جل وعلا – وحده – سبحانه – ، يعني : إنزال العبودية الحقّة المستحقة في واحد وهو الله – جل جلاله – .

هذه هي ملّة إبراهيم وهذه هي الحنيفية وهي التي أمر الله – جل وعلا – نبيه بالاستمساك بها [ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ... ] فملّة إبراهيم هي التوحيد .

وإذا عرفت هذا فإن العبادة لا تقبل إلا بالتوحيد وذلك من مثل الطهارة للصلاة ، فإن التوحيد شرط قبول العبادة يعني : الإخلاص والطهارة شرط صحة الصلاة ، فكما أنه لا تصح الصلاة إلا بالطهارة فكذلك لا تصح عبادة أحد إلا إذا كان موحدًا ، ولو كان في جبهته أثر السجود وكان صائمًا بالنهار قائمًا بالليل فإن شرط قبول ذلك أن يكون موحدًا مخلصًا . قال – جل وعلا – : [ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَٰسِرِينَ . بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّٰكِرِينَ ] وقال – جل وعلا – في الكفار : [ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ].

فعظيم العبادة وكثرة العبادة إذا لم تكن مع الإخلاص فإنها تكن غير مقبولة كما أن الرجل يصلي صلاة عظيمة يطيل فيها القيام ويطيل فيها الركوع ويطيل فيها السجود ويحسِّنها جدًا وقد دخل فيها على غير طهارة . هذه صلاة غير مقبولة بالإجماع لأن الطهارة شرط صحة الصلاة كما ثبت في الصحيح أن النبي ε قال : " لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ " . لا صلاة إلا بطهور ، وهذا شرط متفق عليه . وهذا تقريب لهذه المسألة العظيمة وإلا فإن شرط الإخلاص والتوحيد لقبول العبادة أعظم من شرط الطهارة لقبول الصلاة لأنه إذا صلى محدِثًا متعمِّدًا فإن في تكفيره خلافًا بين أهل العلم . وأما إذا عبد الله مشركًا فإنه بالإجماع ليس مقبول العبادة وبالإجماع هو كافر لأنه أشرك بالله – جل وعلا – الشرك الأكبر الذي لا يقبل معه عمل .

إذا تقرّر ذلك فإن هذا الأصل يجعل المرء يخاف ويفرح ، يخاف من الشرك وأن يكون من أهله ، ويفرح أن جعله الله – جل وعلا – من أهل التوحيد ، فرحه بأن جعله الله من أهل التوحيد يوجب شكر ذلك والمحافظة عليه وخوفه وهربه من أن يكون من أهل الشرك أو أن يأتيه بعض الشرك يجعله دائم الحذر أن يعتري عبادته أو عقيدته أو أقواله شيء من الشركيات لأن الشركيات إذا كانت من الشرك الأكبر فإنها محبطة للعمل وإذا كانت من الشرك الأصغر فإنها أعظم من البدع والمعاصي المختلفة يعني : من حيث الجنس ، وهذا لاشك يجعل المرء الخائف الراجي ، الخائف الفرح ، الفرح بالتوحيد ، الخائف من الشرك يجعله يطلب هذه القواعد التي تجعله في يقين من أمره ، والتوحيد والشرك في دعوة الإمام المصلح – رحمه الله – لمن تأمله قد يكون معه شيء من التردد أو الشك في صحة ما جاء به الشيخ من جهة تقرير المسائل ومن جهة الحكم على أهل الشرك والإشراك ، لأن المسألة عظيمة أن يكون أحد ممن يقول : لا إله إلا الله محمّد رسول الله ويصلي ويزكي ويصوم ويحج ويتعبد ويكون من أهل العبادات العظيمة

ومن أهل الصلاح –كما يقول الناس – ثم يقال : أن عمله الذي عمله من الشركيات أو لما يكفر بالطاغوت يجعل عمله هذا كلاشيء .

هذه عظيمة وكيف تستقر في النفوس فربما حدث من جهة النظر في الناس الذين يتعبدون العبادات العظيمة وهم واقعون في الشرك ربما تعاظم بعض الناس أن يكونوا من المشركين . يعني : أن يكون أولئك من المشركين . وهذه القواعد لتأصيل هذه المسألة العظيمة وهي أن الأمر ينظر فيه إلى حق الله وإنما أتى الخلل من جهة نظر الناس إلى حق المخلوق ، إلى واقع المخلوق ولكن لو نظروا إلى حق الله – جل وعلا – الذي خلق الإنسان فسواه وعدله والذي خلق السموات على هذا النحو العظيم وهذه الأرض وأقام الدلائل على وحدانيته في ربوبيته وجعل ذلك في النفس وفي الآفاق وفيما حوله يجعل أنه لا حجة لمشرك على الله – جل وعلا – ولكن الله – جل وعلا – بعث الرسل رحمة لإقامة الحجة ولإعلان النكير .

## القاعدة الأولى

**أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ε مُقِرّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبِّر وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام والدليل قوله تعالى : [ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ والأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ**

**السَّمْعَ والأَبْصَـارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيـُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ]** .

---

أن توحيد الربوبية لا يدخل أحدًا في الإسلام توحيد الربوبية ليس هو المطلوب فإن معرفة العرب بأن الله – جل وعلا – هو الخالق وهو الرازق وحده وهو المحي وحده وهو المميت وحده وهو الذي يجير ولا يجار عليه وهو الذي إليه الأمر وهو الذي ينزل المطر وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات هذا كله يقرّون بأن الذي سخر ذلك وخلقه هو الله – جل وعلا – ومع ذلك ما نفعهم ولم يجعلهم الله – جل وعلا – بذلك من أهل الإسلام قال – جل وعلا – : [ وَمَـا يُـؤْمِنُ أَكْثَـرُهُم بِـاللَّهِ إِلاَّ وَهُـم مُّشْرِكُونَ ] ما يؤمن أكثرهم بالله يعني : الإيمان بربوبيته إلا وهم مشركون في عبادته .

تنظر إلى حال كفّار العرب ، مقرّون بأفراد الربوبية بأكثر أفراد الربوبية كما قال – جل وعلا – : [ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ والأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَـارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُـخْرِجُ الْمَيِّتَ مِـنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْـرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ] [ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ ] يعني : الذي يفعل هذه الأشياء هو الله وحده [ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ] يعني : أتقولون ذلك وتقرّون بوحدانيته في الربوبية أفلا تتقونه في عبادته وحده ، وترك الإشراك به فأقام عليهم الحجة بما أقروا به على ما أنكروه ، وهذه هي طريقة القرآن في إقامة الحجة على المشركين ، فإن من براهين التوحيد ، توحيد العبادة أن تقام الحجة بتوحيد الربوبية لأن من كان هو الفاعل وحده يعني : هو الخالق وحده والرازق وحده إلى آخر أفراد الربوبية فإنه هو الذي يستحق العبادة دون ما سواه ولهذا قال – سبحانه – منكرًا على المشركين : [ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ] وقال – سبحانه – : [ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ] ووصف الذين جعلهم المشركون آلهة بأنهم عاجزون وليس لهم قدرة وليس لهم خلق وليس لهم صفات تجعل أولئك يتوجهون إليهم : [ ... وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ] هذا مثل الذين توجهوا إليهم بالعبادة وإقرار المشركين بالربوبية لم يدخلهم في الإسلام .

نستنتج من ذلك أن إقرار من بعدهم بالربوبية لا يعني أنهم مؤمنون فإذا أتى آت وقال : أنا مؤمن بأن الله هو الرب وهو الخالق و هو ربي وهو الذي خلقني وهو الذي أحياني وهو الذي يميتني ، هذا لا يعد مؤمنًا الإيمان الشرعي يعني : لا يعد مسلمًا حتى يأتي بالتوحيد ولهذا غلط المتكلمون حين عرّفوا الإله بأنه القادر على الاختراع . قالوا : الإله هو القادر على الاختراع فعندهم معنى لا إله إلا الله راجع على الربوبية ، وهذا أعظم غلط على دين الإسلام الذي غلط به المتكلمون على الدين وعلى الملّة حيث جعلوا الابتلاء واقعًا في الربوبية فإذا أيقن بأن الموحِّد للأشياء والخالق لها هو الله فإنه يكون عندهم مؤمنًا مسلمًا وهذا غير معنى الألوهية لأن معنى ( لا إله إلا الله ) : لا معبود بحق إلا الله – جل وعلا – فمعناها راجع إلى العبودية لا إلى الربوبية .

إذًا مراد الشيخ من هذه القاعدة المهمّة اليقينية ، لأن هذه القاعدة يقينية من حال الكفار وحال المشركين في أنهم مقرّون بتوحيد الربوبية ولم ينفعهم ولم يدخلهم في الإسلام ولم يجعل لهم حقًا لأنهم أشركوا مع الله – جل وعلا – آلهة أخرى وعبدوا آلهتهم الباطلة ، وقالوا : [ **أَجَعَلَ الأَلِهَةَ إِلَـٰـهًا وَاحِدًا** ... ] ، فإذا نظرنا في هذا الزمن وفي زمن الشيخ وما قبله وما بعده في أن هناك من يوقن بالربوبية ولكنه يشرك في العبادة فإن ذلك لا ينفعه كحال الأولين لأن القاعدة : أن مشركي العرب كانوا يوقنون بالربوبية واليوم قد يأتي على بعض النفوس ضعف إذا سمع من يقول : إن شاء الله أو سمع من يذكر الله – جل وعلا – أو يقول عن الله هو ربه أو هو مولاه ونحو ذلك ظنه مسلمًا وقنع منه بذلك وهذا لم يقع الابتلاء به أصلاً بل لابد أن يكون موحِّدًا في عبادته يعني : يعبد الله بما جاء به المصطفى ε ويكون متبرءً خالصًا من الشرك وأهله .

## القاعدة الثانية

**أنهم يقولون : ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة . فدليل القربة قوله تعالى : [ ... وَالـَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِـهِ ـ أوليـآءَ مَـا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبـُونـآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٓ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَـفَّارٌ ] .**

**ودليل الشفاعة قوله تعالى : [ وَيـَعْبُدُونَ مِـن دُونِ اللهِ مَـا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يـَنفَعُهُمْ وَيـَقُولُونَ هَـٰٓؤُلاَءِ شُفَعَـٰٓؤُنَـا عِندَ اللهِ ] .**

**والشفاعة شفاعتان :**

**1 – شفاعة منفية .**

**2 – وشفاعة مثبتة .**

**فالشفاعة المنفية : ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله . والدليل قوله تعالى : [ يَـٰأَيُّهَا الّذِينَ ءامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يـَأْتِىَ يـَوْمٌ لاَّ بـَيْعٌ فِيـهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَـٰعَةٌ وَالْكَـٰفِرُونَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ ] .**

**والشفاعة المثبتة : هي التي تطلب من الله والشافع مكرم بالشفاعة ، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن كما قال تعالى : [ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ ] .**

---

هذه القاعدة في بيان حال المشركين في عبادتهم ، عبدوا آلهة مع الله ومن دونه ، ماذا يقصدون بهذه العبادة ؟ هل يقولون : هي آلهة استقلالية أم أنها وسائط ؟ .

هذه القاعدة أفادت بأنهم إنما كانوا يعبدون غير الله – جل وعلا – على جهة الوساطة ، على جهة القربة أو على جهة الشفاعة ، يعني : يقولون : أن آلهتهم الباطلة تقرّبهم إلى الله أو ترفع حوائجهم إلى الله أو يقولون : أنها تشفع لهم عند الله – جل وعلا – ، يعني : أن مشركي العرب لم يكونوا يطلبون من الآلهة على وجه الوساطة وهذه الوساطة من جهة القربى ومن جهة الزلفى والجهة الثانية : جهة الشفاعة كما ذكر – رحمه الله – قال : ودليل القربة قوله تعالى : [ ... وَالـَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِـهِ ـ أوليـآءَ مَـا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبـُونـآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٓ ...] .

قال : [ وَالـَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِـهِ ـ أوليـآءَ ] يعني : آلهة [ مَا نَعْبُدُهُمْ ] يعني : يقولون : ما نعبدهم إلا ؛ هذا حصر يسمى عند علماء البلاغة حصر قلب إضافي [ مَـا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبـُونـآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٓ ] يعني : ما نعبدهم لعلة من العلل إلا لأجل التقريب فهم حصروا ما أرادوا في القربى من الله – جل وعلا – فهم أرادوا ما عند الله – جل وعلا – فإذًا حين توجهوا لهذه الآلهة الباطلة أرادوا ما

عند الله ولم يطلبوا منها استقلالاً إنما أرادوها زلفى وقربى إلى الله – جل وعلا – قال : [ ... وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ~ أولياءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٓ ...] فأرادوا بذلك القربى

ودليل الشفاعة قوله – جل وعلا – : [ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ ... ] الآية .

وذلك يعني الشفاعة : أن يطلبوا من الله – جل وعلا – لهم الحوائج لأن معنى الشفاعة أن يضم المطلوب منه طلبه إلى الطالب فيرفعه إلى من عنده الأمر . هذا معنى الشفاعة ، [ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِۚ ] يعني : سيكونون طالبين لنا ما نريد والله – جل وعلا – لا يرد شفاعتهم لأنهم مقرّبون عنده وأصل شرك العالم كان جميع الفئات والطوائف كان على أحد جهتين :

أما الجهة الأولى : فهو الشرك بالاعتقاد بروحانيات الكواكب كما كان شرك قوم إبراهيم – عليه السلام – فإن إبراهيم أتى إلى قوم يعبدون الأصنام التي هي مصورة على صور روحانية الكواكب الكواكب الخاصة التي يعتقدون أن لها تأثير في الملكوت . عبدوا الأصنام أو الأوثان لأن أرواح تلك الكواكب تحل فيها وأرواح الشياطين تحل فيها ، وجعلوا الصالحين وأرواح الصالحين والاعتقاد فيهم وجعلوا أولئك أولياء . جعلوا ذلك سببًا لكي يرفع أولئك الحوائج لهم إلى الله – جل وعلا – .

إذا تأملت حال العرب وجدت أن الشرك حصل من العرب كما مرّ للشيخ – رحمه الله – تقريره في هذه القاعدة الثانية : أن الشرك حصل من العرب بأناس صالحين – كما سيأتي – أو أن الشرك وقع بالآلهة لأجل طلب القربى والشفاعة . لا لأجل أن هذه مستقلة لها نصيب من الربوبية أو لها شيء من الألوهية الاستقلالية لا ، ولكن لها ألوهية على جهة تعبد لكن لأنها واسطة وليست آلهة مستقلة .

لهذا قال – جل وعلا – : [ أَجَعَلَ الأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ ] فإنهم يعتقدون أن هذه الآلهة وسائط على جهة القربى والشفاعة .

الشفاعة في الكتاب والسنة في النصوص نوعان : شفاعة منفية ، وشفاعة مثبتة .

والشفاعة المنفية كما ذكر الإمام – رحمه الله – هي : الشفاعة فيما لا يقدر عليه إلا الله – جل وعلا – الشفاعة في مغفرة الذنب ممن لا يملك ذلك الشفاعة بمعنى : طلب الدعاء ، ( شفع ) يعني : طلب ، والشفاعة هي : الطلب والمطلوب منه إلا أن يكون حيًا حاضرًا وإما أن يكون ميتًا والحي الحاضر في الدنيا أو في عرصات القيامة جاءت الأدلة بجواز طلب الشفاعة منه كما جاءت بذلك النصوص الكثيرة .

أما الميت فإنه ليس في دار عمل وليس في دار طلب وليس عند الله – جل وعلا – بالمكان الذي يطلب فيعطى ما طلبه ولكن تطلب الشفاعة من الله – جل وعلا – فالشفاعة المنفية هي التي نفاها الله – جل وعلا – في كتابه كما في قوله : [ ... مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ] وكما قال : [ وَلاَ شَفَٰعَةٌۗ وَالْكَٰفِرُونَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ] وكما قال – جل وعلا – : [ ... لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ

وَلِـيٌّ وَلاَ شَـفِيعٌ ... ] ونحو ذلك من الآيات التي فيها نفي الشفاعة ، هذه الشفاعة المنفية هي : الشفاعة التي تكون من غير إذن الله ولا رضاه وتكون بطلبها ممن لم يمكن من ذلك ، لم يمكن أن يطلب الشفاعة وبهذا يكون طلب الشفاعة من الله – جل وعلا – ، وهذه هي : الشفاعة النافعة الشفاعة المثبتة .

وهذا استطراد من الشيخ – رحمه الله – في بيان معنى الشفاعة الحقّة والرد على الذين تعلّقوا بالشفاعة الباطلة ، وتفصيلها معروف في موضعه من كتاب التوحيد ومن كتب أهل السنة في الشفاعة .

ملخص ذلك : أن الشفاعة المثبتة هي التي توفرت فيها الشروط الشرعية وأعظم هذه الشروط شرطا : الإذن والرضا . الإذن للشافع أن يشفع والرضا عن الشافع والرضا عن المشفوع له . قال – جل وعلا – : [ وَكَـم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّمَـٰوَٰتِ لاَ تُغْنِى شَفَـٰعَتُـهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنۢ بَـعْدِ أَن يَـأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَـشَآءُ وَيَـرْضَىٰٓ ] وقال – سبحانه – : [ ... وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ... ] وقال : [ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ الشَّفَـٰعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَـعْلَمُونَ ] . فإذًا الشفاعة المثبتة هي النافعة لكن تنفع بشرطي الإذن والرضا ، الرضا عن الشافع وأن يكون ممن شهد بالحق وهو يعلم والرضا عن المشفوع له وأن يكون من أهل التوحيد ، ولهذا ثبت في الصحيح أن أبا هريرة – رضي الله عنه – سأل النبي ε فقال : يا رسول الله : من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة . قال : " لقد علمت أنه لن يسألني أحد قبلك لما أعلم من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه " قال العلماء : أسعد الناس يعني : سعيد الناس يعني : أفعل التفضيل هنا ليس على بابها في المفاضلة وإنما هي بمعنى سعيد الناس كقوله – جل وعلا – : [ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ] والنار ليس فيها مقيل حسن .

فإذًا الشفاعة إنما هي لأهل الإخلاص ، الشفاعة ، شفاعة النبي – عليه الصلاة والسلام وشفاعة الملائكة وشفاعة الصالحين ، وشفاعة العلماء يوم القيامة ؛ إنما هي لأهل الإخلاص وأهل الإخلاص يطلبونها من الله ، فيقول المخلص : اللهم شفِّع فيّ رسولك ε يوم القيامة . اللهم شفِّع فيّ ملائكتك ، اللهم شفِّع فيّ العلماء الصالحين ، اللهم شفِّع فيّ عبادك الذين تحبهم ويحبونك ، ونحو ذلك من الألفاظ .

فالشفاعة من الله – جل وعلا – ، ولا تطلب الشفاعة من المخلوق لم ؟ لأن الشفاعة طلب ، الشفاعة طلب الدعاء إذا قال : استشفع يعني : أطلب منك الدعاء ، أطلب منك رفع حاجتي ، وإذا رجع أمر الشفاعة إلى الطلب ، صارت الشفاعة من أنواع الدعاء فصارت دعوة غير الله شركًا أكبر .

لهذا نقول : طلب الشفاعة من غير الله شرك أكبر ، من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله يعني : من الأموات ونحو ذلك فإن هذه شرك لأنها دعاء ، والدعاء يجب أن يكون مخلصًا فيه لله – جل وعلا – .

## القاعدة الثالثة

أن النبي ε ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم ، منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ، ومنهم من يعبد الشمس والقمر وقاتلهم رسول الله ε ولم يفرق بينهم ، والدليل قوله تعالى : [ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ... ] .

ودليل الشمس والقمر قوله تعالى : [ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ والْقَمَرُۚ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ] .

**ودليل الملائكة قوله تعالى : [ وَلاَ يـَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلَـٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا ... ] .**

**ودليل الأنبياء قوله تعالى : [ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يـَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ الْغُيُوبِ ] .**

**ودليل الصالحين قوله تعالى : [ أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَـٰى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ] .**

**ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالى : [ أَفَرَءَيْتُمُ اللَّـٰتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰٓ ] ، وحديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : خرجنا مع النبي ε إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ) الحديث .**

---

هذه القاعدة فيها مقدمة ونتيجة ، أما المقدمة فهي راجعة إلى معرفة حال العرب بما أخبر الله – جل وعلا – عنهم في عباداتهم وآلهة العرب الباطلة التي كانوا يعبدون كانت متنوعة ، فمنهم من كان يعبد الشمس والقمر ، وذكر لك دليل ذلك وهو قوله تعالى : [ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ] وهذا نوع من العرب طائفة كانت تعبد الشمس والقمر ومن غير العرب أيضًا .

ومنهم من كان يعبد الحجر والشجر ، ومنهم من كان يعبد الملائكة كما قال – جل وعلا – : [ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ . قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ... ] وكان من الناس من العرب وغيرهم كان يشرك بالملائكة ، ومنهم من كان يشرك بالأنبياء عيسى – عليه السلام – قال – جل وعلا – في حقه : @ [ ... ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلـٰهين من دون الله قال سبحـٰنك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولآ أعلم ما في نفسك إنك أنت علّـٰم الغيوب ] فأُشرك بعيسى – عليه الصلاة والسلام – وأُشرك بالصالحين ، قال – جل وعلا – : [ إن الذين سبقت لهم منا الحسنىٓ أولـٰٓئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها ... ] وقد جاء في سبب نزولها أنه لما نزل قول الله – جل وعلا – : [ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وٰاردون . لو كان هـٰٓؤلآء ءالهة ما وردوها ... ] فرح العرب بذلك وقالوا سنكون مع عيسى وسنكون مع العزير وسنكون مع .. مع ، ثم نزل قول الله – جل وعلا – : [ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولـٰٓئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها ] فتوجهوا للصالحين بالعبادة المختلفة للرجال من الأنبياء والرسل والصالحين ، وتوجهوا أيضًا للأشجار والأحجار : [ أفرأيتم اللـٰت والعزى .

ومنـلوة الثـالثة الأخرى ] ، توجهوا إلى الشياطين والجن : [ ... بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ] [ وأنهۥ كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا ] .

هذه أصناف عبادات العرب جاءت في القرآن وحال العرب ظاهر فيها .

هل فرّق الله – جل وعلا – في أمره لنبيه بين فئة وأخرى فقال لهم : من عبد الأشجار والأحجار والأصنام والشمس والقمر قاتلوهم وأما من جعل الصالحين والأنبياء شفعاء وجعل الصالحين والأنبياء قربى وزلفى إلى الله – جل وعلا – فهؤلاء لا تقاتلونهم ؟ .

لم يأت هذا التفريق بل جاء الأمر واحدًا وحكم على الجميع بأنهم كفار مشركون وقوتلوا وأمر الله – جل وعلا – جميع تلك الفئات وجميع أولئك المشركين جاء الأمر بقتالهم بدون تفريق : [ ... وقـٰـتلوا المشركين كآفة كما يقاتلونكم كآفة ... ] وهذا عام في الجميع وهذه هي النتيجة فما قبلها مقدمة ، وإذا كان كذلك كان لا ميزة أو لا فرق بين أن يعبد نبيًا ، أو أن يعبد حجرًا وشجرًا ، أو أن يعبد جنيًا ، أو أن يعبد ملَكًا الحال واحدة .

فمن أتى في هذا الزمان وفرّق وقال : الصالحون إنما هم أولياء ولهم مقام عند الله والأنبياء لهم مقام وجاه فإذا استشفعنا بهم فإن لهم جاهًا عند الله – جل وعلا – . فنقول : وأي فرق بين عبادة هؤلاء الصالحين التوجه إليهم وبين عبادة من عبد عيسى أو عبد العزير أو عبد الصالحين الذين كانوا يعبدون ؟ أي فرق بين هذا وهذا لاشك أن الحكم على الجميع واحد . وهذه قاعدة يقينية من أنه لا فرق بين هذا وهذا لأن المدار على عبودية القلب فإذا قام في القلب التنديد والإشراك بالله – جل وعلا – فسواء أكان المشرَك به صالحًا أم طالحًا ، كان نبيًا أم لم يكن نبيًا ، كان شجرًا أم كان ملَكًا ، الأمر واحد لأن القلب يجب أن تكون عبوديته لله وحده وأن يكون دينه لله وحده : [ ألا لله الدين الخالصۚ ... ] [ قل الله أعبد مخلصًا لهۥ ديني ] وهذه العبودية من جهة العابد لا ينظر فيها إلى من توجه إليه فإن توجه لله الواحد الأحد فهو موحد مخلص وإن توجه إلى غيره مشرك مهما كان ذلك الغير . ولهذا قال الله – جل وعلا – : [ وأن المسـٰـجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا ] وقوله : [ أحدًا ] يعم الجميع – كما ذكرنا ذلك مرارًا – . وقوله – جل وعلا – : [ ومن يدع مع الله إلـٰـهًا ءاخر لا برهـٰـن لهۥ بـه فإنما حسابهۥ عند ربهۚ إنهۥ لا يفلح الكـٰـفرون ] قال – جل وعلا – هنا : [ ومن يدع مع الله إلـٰـهًا ءاخر لا برهـٰـن لهۥ بـه ] هذه صفة من عبد غير الله – جل وعلا – في أنه لا برهان له بما عبد وليس لها مفهوم من أن هناك ما يعبد وثَمّ برهان عليه بل كل من عبد غير الله وعبد غير الله فإنه لا برهان له على أحقية ذلك الغير بالعبادة أو التوجه فإذا نظرنا في هذا الزمن الذين يعبدون الأولياء ، ويعبدون القبور والمشاهد ويتوجهون إليها والأنبياء والرسل ويقولون : لهم مقامات ونحو ذلك للصحابة في كل بلد ثَمّ ضريح ويتوجه الناس إليه ويشركون به يقولون : هذه ليست هي عبادة المشركين الأولين لأن هذه عبادة صالحين وأولئك إنما عبدوا الأصنام عبدوا الأحجار كيف يكون ذلك وقد قال – جل وعلا

– في وصف أولئك المعبودين : [ أموات غير أحيآء وما يشعرون أيـّان يبعثون ] قال طائفة من المفسرين كأبي حيّان في تفسير البحر المحيط وقال غيره : أن هذه الآية فيمن يبعث لأن الله قال : [ أموات غير أحيآء ] والذي يوصف بأنه ميت هو من كان حيًا قبل ذلك والأصنام التي هي من الأحجار والأشجار ونحو ذلك لا توصف بأنها أموات غير أحياء وإنما الذي يوصف بذلك من كانت تحله الحياة ثم صار ميتًا فإنه يقال أموات غير أحياء .

وبيّن ذلك أكثر حين قال : [ وما يشعرون أيـّان يبعثون ] فإنها في حق من يبعث يوم القيامة للقاء الله – جل وعلا – . فإذًا هذا الذي يحتج به مشركو هذا الزمان وزمان الشيخ – رحمه الله – وهذا في كل مكان يقولون : إنما توجهنا إلى صالحين . وأولئك الأولون إنما توجهوا إلى صالحين ، قالوا : نطلب الوساطة ، ما طلبنا منهم استقلالاً . نقول : والأولون – أيضًا – طلبوا الواسطة والقربة والشفاعة ولم يطلبوا الاستقلال ، فالحال هي الحال وإن تغيّرت الأسماء وتغيّرت الدعاوى فالحال هي الحال وما أشبه الليلة بالبارحة .

## القاعدة الرابعة

**أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأولين لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة ومشركو زماننا شركهم دائمًا في الرخاء والشدة ، والدليل قوله تعالى : [ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجـٰـهم إلى البر إذا هم يشركون ] .**

**( تمت وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم )**

---

هذه نتيجة ، قاعدة هي نتيجة لما سبق ، يعني : مرتبة على ما سبق ، إذا تقرّر أن المشركين في هذا الزمان من جنس المشركين في كل زمان من جنس مشركي الجاهلية وإن كانوا ينتسبون إلى الملّة والإسلام ولهم صلوات وتعبدات ، إذا كانوا من جنسهم والشرك الذي فعلوه الأولون فربما زادت الحال ، وهو الذي بيّنه الشيخ في هذه القاعدة . في أن مشركي هذا الزمان أغلظ شركًا من مشركي أهل الجاهلية . لم ؟ لأن الله – جل وعلا – وصف أهل الجاهلية بأنهم يشركون في الرخاء وأما في الشدة فإنهم يوحدون ، قال – جل وعلا – : [ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسّكم الضر فإليه تجـٔرون ] إليه يعني : دون ما سواه [ فإليه تجـٔرون. ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتينـٰـهمۚ ] وقال – جل وعلا – في بيان حالهم في البحر : [ ... حتىٰٓ إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جآءتها ريح عاصف وجآءهم الموج من كل مكان وظنوٓا أنهم أحيط بهمۙ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشـٰكرين . فلما أنجـٰـهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ... ] وقال – جل وعلا – : [ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله

مخلصين له الدين فلما نجـٰـهم إلى البر إذا هم يشركون ] وفي الآية الأخرى : [ ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من ءايـٰـته إن في ذلك لأيـٰـت لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجـٰـهم إلى البر فمنهم مقتصدۚ وما يجحد بـءايـٰـتنآ إلا كل ختّار كفور ] إذا تأملت الحال والحال ، فأولئك يشركون في حال الرخاء ، وأما إذا مسّتهم البأساء ومسّتهم الضراء فإنهم يخلصون ويوحدون ، [ دعوا الله مخلصين له الدين ] أما مشركو هذه الأزمنة فإنهم إذا مسّهم الضر فزِعوا إلى العيدروس أو إلى الحسين أو إلى البدوي أو إلى المرغناني أو إلى ... أو إلى ، إلى آخر أنواع الناس أو الموتى الذين يتوجهون إليهم .إذا مسّتهم الضراء فزِعوا إلى أشجار إلى أحجار ونحو ذلك وهذا لاشك أنه أعظم من شرك الأولين لأنهم يشركون في حالين ، والمشركون الأولون يشركون في حال واحدة ويتذكرون في الحال الثانية ، ولكن من يفقه هذا ، ومن يفهم هذا ومن يخف عليه هذا الأمر حتى يكون يقينًا عنده لا مراء فيه ولا لبس لأن بعض الناس قد يقول هؤلاء : يصلون ويزّكون ويصومون فكيف يكونون أغلط شركًا من الأولين ، نقول : العمدة على أصل الدين ، لأن هذه العبادة بلا توحيد لا تنفع – كما ذكرنا في أول الكلام – كما لا تنفع الصلاة بلا طهارة ، فإذا كانت هناك عبادات عظيمة مع الشرك لا تنفع ولا تقبل ، فكيف إذا كان يشرك في حال الرخاء وفي حال الشدة .

وقد ذكر بعض العلماء : أنه لقي رجلاً من أهل الطائف – قبل انتشار الدعوة هناك ومعرفة الناس بالدعوة والتوحيد – فقال له : هؤلاء أهل الطائف إذا جاءتهم شدة فزِعوا إلى ابن عباس ولا يعرفون الله . فقال الآخر له : معرفة ابن عباس تكفي . وهذا نوع من أنواع الشركيات التي تغلغلت في النفوس نسوا معها الله – جل وعلا – في الرخاء وفي الشدة إلا ما ندر . وهذا كثير كثير اليوم فحرِّك ترى والناس في عجب في هذا الأمر والله – جل وعلا – أنعم علينا في هذه البلاد أننا لا نرى ولا نسمع ما يقلقنا من هذه الأمور الشركية والكفر الأكبر والشرك الأكبر بالله – جل وعلا – .

ومن ذهب إلى البلاد التي تكثر فيها الشركيات كبعض جهات مصر وبعض جهات السودان وإفريقيا وبعض جهات باكستان والهند والعراق وسوريا ونحو ذلك ؛ لرأى عجبًا والناس يتوجهون إلى هذه الأضرحة وإلى مدافن الأولياء وغير الأولياء ويعتقدون فيهم اعتقادات ويجعلون لهم نصيبًا من الإلهية ، والله – جل وعلا – له الحق الأعظم في إخلاص الدين له .

وأعظم ما يستحق – جل وعلا – أن يُعبّد القلب له وأن لا تكون ثَمّ عبادة إلا له – سبحانه – دون ما سواه كما قال – جل وعلا – : [ ... فمن كان يرجوا لقآء ربه فليعمل عملاً صـٰـلحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ] وقال – جل وعلا – في الحديث القدسي : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه " .

فإذا كان هذا في الرياء يقصد المرء بالعمل غير الله – جل وعلا – ، يقصد رؤية فلان ، فكيف بالتوجه بالعبادة لغير الله – جل وعلا – كأن يدعو غير الله ، أو أن يستغيث بغير الله ، أو أن ينذر لغير الله ، أو أن يذبح لغير الله ، أو أن يستعيذ بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وأن يستغيث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، التوجه إلى الموتى والاعتقاد فيهم ويسمون ذلك " السر " يقال : روح السيد فيها لهذا يجعلون مكان الروح كلمة " سر " فيقولون : هذا له سر ، وقدّس الله سره ، لأنهم يجعلون لأرواح أولئك أسرارًا وروحه ليس فيها سر إلا سر صنعها وخلقها من الله – جل وعلا – .

[ إذ تبرّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب ] وقال – جل وعلا – مخبرًا عن حال الكفار في النار : [ تا الله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العـٰلمين ] قال العلماء : ما سووهم برب العالمين في أنهم يخلقون ويرزقون ويحيون ويميتون وإنما سووهم في العبادة . في أن توجهوا لهم ببعض العبادة فصاروا مسوِّين لهذه الآلهة الباطلة في استحقاق العبادة بأنهم عبدوا الله وعبدوا غيره فساووا الخلق بالخالق – جل وعلا – وهذا أبشع ما يكون من الظلم وأقبح ما يكون من الاعتداء على حق الله – جل وعلا – إذ حقه – سبحانه وتعالى – إجلاله وتعظيمه وتوحيده والإخلاص له والاعتراف له بكل كمال ووصفه – جل وعلا – بنعوت الجمال والجلال والكمال وسلب رؤية النفس وأنه ليس ثَمّ خير إلا منه – سبحانه – وليس ثَمّ اندفاع شر إلا منه – سبحانه فنحن إنما نتقلّب بفضل الله وبنعمته فهذا الأمر إنما يعود إلى أصل تلك الدعوات الثلاث نسأل الله – جل وعلا – أن يجعلنا ممن إذا أُعطي شكر ، وإذا أُبتلي صبر ، وإذا أذنب استغفر ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمّد ε .

تمت بحمد الله تعالى

أسأل الله أن يحفظ شيخنا : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ وأن يجزيه خيرًا عن الموحِّدين وينفع بعلمه ويوفقه لكل خير . وصلى الله على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

عادل مرسي